مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويا

العدد الثالث
1986

- صدى الأدب العربي في الدعوة الإسلامية
- مخطوطات ليبية
- وصول الإسلام إلى ساحل مليبار
- التيارات الفلسفية وعلاقتها بالصراع على الحكم

شُرُوطُ ٱلدَّاعِيَةِ

ٱلتَّحَرُّرُ ٱلجوَّانِي « النَّاتِي »

د . ياسين عريسي

يمكن القول إجمالاً بأن الجزيرة العربية كانت في مطلع القرن السادس الميلادي تمثل منطقة اللاجذب العالمية، وذلك في مجالي الفكر والعقيدة. وإذا كان الشعر الجاهلي يمثل قمة الفكر العربي القديم، فإن هذا الشعر لا يصل إلى مستوى الفكر الفلسفي اليوناني، الذي كان بدوره يمثل صيرورة الفكر الانساني في القرون القريبة من ميلاد المسيح. . . حقا إن الشعر الجاهلي هو الذي أعطى مناخا لغويا للحضارة الاسلامية الشامخة والتي استوعبت تراث الانسانية وصبغت مخبره ومظهره حتى أصبح منهج التوحيد هو الشرط الاساسي لكل تقدم حضاري وعلمي على السواء، ولكن هذا

الشعر نفسه لم يصل إلى شمولية واستيعاب الفكر الانساني بأسره.

ورغم أن الجزيرة العربية كانت مهبط الأديان السماوية، فإن العقائد الشرقية الأخرى بما لها وما عليها تطورت ونمت في مناطق أخرى من الشرق مثل الهند ومصر وعلى الخصوص في بلاد الفرس التي كانت تمثل الصراع الحقيقي مع الغرب. إن آلهة العرب مثل اللات والعزّى ومناة خلدت من خلال انحرافها حينما ذكرها القرآن الكريم، ولكنها لم يتولد عنها فكر خالد كما هو الحال بالنسبة للثانوية والمانوية والمزدكية وغيرها.

وإذا كانت وظيفة العقل هي التوحيد ورد الكثرة إلى الوحدة، فإن المشيئة الأزلية اتخذت بين العقل والعقيدة بداية البداية في شبه الجزيرة العربية على اعتبار أن هذا التوحيد العقلي العقائدي هو قمة التحرر الانساني، وقد بدأ هذا التحرر في الفرد عندما «استوت في ذاته كفتا الحياة والموت»، فأصبح يموت ويحيا من أجل عقيدته وحريته، لم يكن الفرد يملك شيئا أعز من هذه الحرية الحقيقية التي اتحد فيها العقل بالعقيدة.

وقد نتج عن قاعدة الاستواء التضحية بالدماء على مستوى الفرد والجماعة إذ أن هذه التضحية يستلزمها الواجب الخلقي المطابق للأمر المطلق، وقاعدة التضحية بالدماء هي التي تضفي على الدعوة الاسلامية معنى التحرر الحقيقي الذي طالما حرفه المستشرقون، والذي طالما استغلوه في تشويه منهج الدعوة الاسلامية فخلطوا قصدا بين السلم والاستسلام وبين التعصب والتسامح وبين الحرية والعبودية... والحقيقة التي لا مراء فيها، إن هذه القاعدة تمثل المحك لمعرفة حقيقة الداعية وهي المعيار الذي يتحدد من خلاله مدى مصداقية الداعية، وما إنسان يثرب إلا أنموذج تجسدت فيه روح التضحية وتأصلت فيه من خلال الممارسة العملية كمنهج تربوي رسخ أخوة العقيدة كنواة جوهرية لتحديد العلاقات الاجتماعية وفي ضوء هذا المنهج تحدد الوجود الاسلامي لمفهوم حضاري يتخطى الوجود العرقي والزماني على السواء.

والتفاعل بين قاعدتي الاستواء والتضحية بالدماء يشترط قاعدة أخرى هي حبر العلماء، وهذه القاعدة تمثل مخبر ومظهر الدعوة الاسلامية بصفة عامة. وهذا الاطار العام للدعوة الاسلامية أعني القواعد الثلاثة «حبر العلماء ودماء الشهداء مرحلة الاستواء يستقي ثباته ووجوده من أصل الأصول وهو التوحيد بين العقل والعقيدة.

وزرع حالة الاستواء في الانسان الداعية لا ينطلق من فراغ وليس من السهولة بمكان، بل يتم من خلال صراع طبقي جواني. . . من خلال صراع غرائز الفرد وميوله وشهواته كوجود جزئي مع وجوده الكلي كفكر وعقل وعقيدة، وهذا الصراع الذي يمكننا أن نطلق عليه اسم (قاعدة الصراع بين العقل والهوى) هو الذي تتم من خلاله ما نسميه «التصفية الفردية» وهذه التصفية تجلت بكل معانيها في الأنموذج القرآني حينما استهان بالطاقة الشمسية وانعكاساتها المستجدة فيها، ورأى أن هذه الطاقة لا تستطيع أن تزحزح عقيدته قيد أنملة، فما أروع تحدي الحرية لكل القوانين الطبيعية حينما يقسم صاحب «السلوك القرآني» على أن لو وضعت الشمس في يمينه والقمر عن يساره على أن يترك دعوته لتحرير الانسانية فإنه لن يستطيع، لأن الطاقة الروحية أقوى من الطاقة الشمسية، بل ليس هناك مجال للمقارنة، فالقوانين الطبيعية مسخرة لقانوني الارادة والحرية.

إن زرع روح التضحية بالنفس والنفيس في الفرد والمجتمع، إن هذه الروح تشترط مرحلة الاستواء، وقد استطاع مجتمع يثرب أن يرث الأرض ومن عليها، فأطاح بإيوان كسرى، واتخذ من القدس أرض محبة وسلام حينما حرّرت من أعداء المسيح وأصبحت محورا للديانات السماوية وقطبا مغناطيسيا يجمع حوله خيوط الحرية، وهكذا استطاع مجتمع صدر الاسلام أن يتمثّل الحضارات الانسانية، وأن يضع أسس المستقبل المادية والروحية.

أما بناء الحضارة الفكرية فهو أمر غني عن التعريف، وعلى سبيل المثال نجد العلم الحديث ارتبط بمفهوم التوحيد، حيث أن العلم يقوم في أساسه على هذا المفهوم وحده، ولولا نظرية المعتزلة عن التوحيد لما وجدت الفيزياء الكلاسيكية، ولولا نظرية الاشاعرة عن التوحيد لما وجدت فزياء الكم المعاصرة، ولما وجدت نظريات الاحتمال بالمعنى العلمي المعاصر.

ولو علقنا الحكم بالنسبة للحقبة التاريخية للأمة الاسلامية الممتدة من مرحلة التفاعل بين القواعد الثلاث وأصل الأصول أعني التفاعل بين مرحلة الاستواء وحبر العلماء ودماء الشهداء وبين اتحاد العقل بالعقيدة، لو علقنا الحكم على هذه الحقبة القائمة بين هذه المرحلة وبين تاريخنا المعاصر وتاريخ الضياع والنكبات لوجدنا أن تلك القواعد وأصل الأصول قد كفرت في النفس أي عطبت وغاب اشعاعها.

إن خطأ مسلمي اليوم يكمن في عدم إدراكهم للتوحيد بين العقل والعقيدة، وذلك بسبب التقليد أو النكوص، وهذا في اعتقادنا هو الأصل في الانفصال والتجزئة الذي مرده إلى الانفصام في الوعي، إن الدعوة القائمة على فصل العلم عن الايديولوجية والعقل عن العقيدة أدت إلى ازدواجية الوعي الفردي والجماعي وعدم القدرة على استيعاب الوجود على أنه وحدة، ومهمة الداعية هي إيجاد المناخ الفكري الذي يحقق وحدة الوعي الفعالية المتحققة في ضوء التركيب المبدع للعقل والعقيدة.

إن بناء الحضارة الاسلامية وإعادة مركز الجاذبية الحقيقي لها بإعادة القدس وما حولها التي يمثل احتلالها معياراً لضعف الوعي الاسلامي وعدم قدرته على تحقيق ذاته، إن بناء الحضارة هذه يتطلب إعادة النظر في بناء الانسان وزرعه بحيث يصل إلى ما نسميه بمرحلة «استواء كفتي الحياة والموت»، وهذه المرحلة يجب أن تكون روحا جماعية لا أن تكون على مستوى أفراد فحسب.

إن الوصول إلى مرحلة استواء كفتي الحياة والموت الجماعية يحتاج إلى بناء حقيقي، بحيث ننفض أيدينا من الأفكار الميتة، والعقائد الممسوخة التي أدت بنا إلى الانقسام والهزيمة... نريد أفكارا لا تنطفىء جذوتها وعقيدة لا تهدأ ثورتها.

وإذا كان المحك الحقيقي للتوحيد بين العقل والعقيدة يتجلى في التضحية بدماء الشهداء فإن مسلمي اليوم اكتفوا بإراقة دماء الاغنام والمواشي في يوم عيد الأضحى بالملايين دون أن يكون هناك تفاعل حقيقي بين رمز التضحية هذا وبين الانسان الذي أصبح يقدم هذا الرمز كعادة سنوية فحسب.

وإذا كانت التضحية بالنفس والنفيس تشترط مرحلة الاستواء فإن تكامل التفاعل بين دماء الشهداء ومرحلة الاستواء يشترط ما أسميناه بحبر العلماء... إن تحقق العقيدة كأساس للمعرفة يعني تحرر الانسان من كل العراقيل التي تقف في طريق التقدم، فالتأليف بين العقيد والمعرفة هو الذي يؤدي إلى بناء الانسان الحقيقي وتغييره لذاته، وبالتالي يغيّر الطبيعة ويسخرها لخدمته، وباختصار فإنّ بناء الانسان القائم على العلم والعمل والاعتقاد هو القاعدة الأولى والأخيرة لتحرر الانسان الذاتي وهو الخطوة الاساسية لتخليص المجتمع الاسلامي من التبعية والتخطيط من أجل بحث الحلول المستقاة من خارج الذات.

إن التحرر الذاتي للداعية يتحقق من خلال التفاعل بين هذه المستويات

النفسية الثلاثة وهذا التفاعل يجب أن يتم في صورة جدلية أو ما نسميه بالصراع الذي يؤدي إلى التوحيد والتركيب بين العقيدة والعقل ويمكننا أن نحدد هذا الصراع في ثلاث مراحل رئيسية:

المرحلة الأولى: صراع الصيرورة والاستواء ووسيلة هذا الصراع التربية والعودة بالنفس البشرية إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها بعيدا عن التقليد الأعمى من ناحية ومن ناحية أخرى بعيدا عن التحجر والجمود.

المرحلة الثانية: صراع التركيب والبناء ووسيلة هذا الصراع بناء عالم الأفكار من خلال حبر العلماء؛ بحيث يجمع الفرد بين الاصالة والمعاصرة فيتخطى الايديولوجيات المعاصرة ويُمسك بزمام وسائل النهوض والتقدم.

المرحلة الثالثة: صراع الوجود صراع التضحية والفداء، وتعميم هذا الصراع هو الأمر المطلق الذي يحرر وجودنا المهدد بالفناء، إن التضحية بالنفس والنفيس هي الاساس في التحرر الحقيقي وهي المحك لتحديد الجزية الحقيقية من عبودية الانسان للانسان.

أولاً: صراع الاستواء

وهذا اللون من الجدل يعتمد أولا وأخيراً على التربية، وإعداد براعم المستقبل إعداداً متكاملاً. إن التربية الحقيقية تعني زرع الانسان وبنائه بناء حقيقيا يقود حضارة الانسانية إلى الدرجة القصوى من السمو، وهذا الدور القيادي لا يتأتى إلا من خلال التكامل في مجال العلوم التقنية والمدنية والروحية. وهكذا نستطيع أن نقول بأن الانسان يتكون من وجود مادي له عناصر كيماوية ووجود عقلي له عناصر روحية، ولا بد من وجود تطابق وتفاعل بين هذين الوجودين لتتحقق وحدة الشخصية وتزول لازدواجية، وهكذا تصبح التربية الروحية للداعية غير كافية، ولا يستطيع الداعية القيام بمهمته على الوجه المطلوب إلا إذا ما تحققت في ذاته التربية المؤدية إلى التفاعل بين العناصر المادية والروحية هذا التفاعل الذي يؤدي إلى تسخير الطاقات الروحية والمادية لخدمة البشرية، والمعيار الحقيقي لهذه التربية هي تحويل الصراع البراني إلى صراع جواني متسام يصبح فيه «الفرد مرآة ينعكس فيها وجود الأمة، وتتحوّل كل الطاقات إلى قوى متحدة خيرة بدلا من أن تتحول إلى قوى متصارعة تجلب البلاء والشر».

ولذا كانت الماركسية قد لجأت إلى الصراع الطبقي الخارجي، فإن هذا الصراع البراني أمر لا مفر منه، ولكنه يشترط الصراع الجواني صراع العقل مع الهوى، وبدون هذا الصراع الجواني تهدر كرامة الانسان ويصبح وجودا جزئيا كما يسحق وجوده الكلي كأمة. ولعل أهم شرط لداعية الاسلام هو تحقق صراع الصيرورة في ذاته ليصبح شعوره بأنه مسؤول على أمته ككل وبالتالي تستوي في ذاته كفتا الحياة والموت، فتصبح حياته مقيدة بمبادئه، وهكذا يملك في ذاته ما يعرف بقرار الموت. حقا إن التربية الاسلامية المعاصرة تعتمد على التقليد الأعمى لحضارة الغرب بسبب افتقادها للدور القيادي في وقتنا المعاصر، وهذا التقليد لا يقوم على بناء حضارة المستقبل.

ولو ألقينا نظرة على البنية التعليمية الجديدة في الجماهيرية على سبيل المثال فإننا نجدها خطة طموحة في مجال التربية التقنية، إذ أنها تنم عن وعي حقيقي لضرورة تسخير الطبيعة ووضعها تحت سيطرة الانسان، و لكنها لا زالت في نفس الوقت فقيرة إلى حد بعيد في مجال التربية الروحية، إن التكامل بين التربية الروحية والمدنية والتقنية شرط أساسي لبناء انسان سوي؛ لبناء إنسان يصنع التاريخ.

إن التربية في دولة الصهاينة المصطنعة نجحت في طرح التحدي الغربي ضد الشرق، ولكي نواجه هذا التحدي مواجهة حقيقية لا بد من إيجاد جيل اسبرطي يفضل التضحية من أجل مبادئه، نريد جيل يثرب الذي استولت فيه روح الانتصار للمائة على الالف وللألف على الألفين.

وبغض النظر عن طرح التصورات لوضع نظرية تربوية اسلامية واحدة فإننا نعتقد أن الاساس الأول والاخير هو التكامل وإن تعددت المسلمات والنظريات. ومما لا شك فيه أن أسس التربية يجب أن تنطلق من مسلمة المسلمات ألا وهي التوحيد. فالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، يجب أن تمثل الاستعداد الحقيقي لاستيعاب النظريات التربوية وتطبيقاتها، ولعل أحوج ما يحتاج إليه العالم الاسلامي اليوم هو إيجاد مركز أبحاث للنظم التربوية تقدم فيه الدراسات والنظريات من المتخصصين وذلك من أجل وجود حلول لأزمة التربية المعاصرة في العالم الاسلامي والقائمة على أساس التعليم التقليدي، أي لا بد من وجود أسس تربوية جديدة من أجل رفع لواء حضارة الغد المرتقبة.

ثانياً: صراع التوحيد والبناء

إن فعالية وعي الفرد في تحمل المسؤولية الجماعية تتحقق بقدر ما تكون الأفكار منتظمة ومتسامية. إن شبكة الأفكار تمثل قوة روحية تتخطى حدود الكثرة المصطنعة لتنعكس في عالم الظواهر على هيئة وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها. إن الجهل المركب في البلاد الاسلامية هو الذي جعلها تتخلف عن ركب الحضارة وهذا الجهل هو الذي ساعد الاستعمار في تحقيق أهدافه، فها هو عالم الأفكار للأمة الاسلامية مصاب بشلل لا يستطيع معه مزاولة مسؤوليته الحقيقية مما خلق للاستعمار الغربي مناخاً يقضي بالابقاء على هذه الأمة وعدم تمكنها من إعادة بناء الحضارة الانسانية وتطويرها.

إن توحيد العالم الاسلامي كرقعة فكرية هو الشرط في توحيد هذا العالم كخريطة مكانية متكاملة، وبعبارة أخرى نجد أن توحيد واتحاد عالم الأفكار هو المحك للتضامن الحقيقي وانهزام سياسة الانفصال التي اعتمد الاستعمار على نشرها من خلال المبدأ «فرّق تسد». فقد استطاع الاستعمار على سبيل المثال أن يخلق صراعا بين مفهوم القومية العربية والاسلام، رغم أن مفهوم القومية العربية يرتبط أولاً وأخيرا بالوجود الثقافي الذي شرطه الاسلام وبذلك ينتفي التعصب الديني الذي يفرق بين الأمة ذات الثقافة الواحدة والمصير الواحد بل إن الوحدة العربية في الواقع تشترط مثالية الوحدة الاسلامية. وقد حاول الاستعمار استغلال عالم السياسة بسبب سقوط عالم الافكار، وعلى الداعية أن يقوم بالعبء الاكبر من خلال تحليله للأحداث بحيث يتصدى لروح الاستعمار والاستعباد بمصل الافكار الحقيقية.

ثالثاً: صراع التضحية والفداء

وهذا اللون من الصراع هو الاساس الذي يجب أن يسعى الداعية لتحقيقه الآن لكي تتحقق دعوة الحرية والتخلص من الاستعباد، أعني دعوة الاسلام، وتحقق روح التضحية في أمة الاسلام هو الذي يجب أن يسعى من أجله الداعية بكل ما له من طاقات وإمكانات، لأن دماء الشهداء هي مشكاة الأنوار التي تضيء طريق الحرية، وما سبب فشل الحكومات العربية في الكفاح المسلح ضد الصهيونية الممثلة للحضارة الغربية إلا بسبب عدم وجود تفاعل حقيقي بين عالم الأفكار والكفاح المسلح ولا أدل على ذلك من صراع الدمار بين العراق وايران الذي كان من الواجب

أن يكون صراعا متحدا ضد الصهيونية.

إن الفكر الاسلامي يقف حتى الآن من العمل الفدائي موقف المتفرج خاصة الفكر الذي اتخذ من الايديولوجيات المستوردة ملهاة تبعد الأمة عن وحدتها ووعيها بمسؤوليتها في الكفاح، إن الداعية الحقيقي هو الذي يسخّر الفكر في تحرير الانسان الذي تقع عليه الدعوة من أوهامه وفي تحرير إرادته بحيث يكون لهذا الانسان حرّية قابلة في حد ذاته، وهذه الحرية هي ما نسميها بمرحلة الاستواء، وتشترط هذه المرحلة الحرية الفاعلة في حبر العلماء لتصبح فعلا حقيقيا متمثلا في دماء الشهداء.

إن سريان روح الكفاح المسلح في الأمة الاسلامية يجب أن يكون أمرا مطلقا لمواجهة الغزو الحضاري وافناء الوجود الاسلامي، وقد أصبح لزاما على الداعية أن يعمل على تجسيد العمل الفدائي على المستوى الفردي والجماعي وتحقق مثل هذه الشمولية هو وحده المحك لتحقق دين الحرية الدين المطلق الذي يجب أن يسود العالم.

أما من الناحية التطبيقية فإن تقييم الكفاح المسلح يمكن أن يتخذ عدة صور وأنماط لا متناهية تختلف باختلاف تطور روح الكفاح ومناخه وباختلاف معطيات المناطق الاسلامية والخطر المحدق بها وقد سبق وأن طرحت نمطا لهذا التطبيق في كتابنا «تأملات في بناء المجتمع الاسلامي» والذي حددناه فيما يسمى «بضريبة التطهير» وقسمنا هذه الضريبة الى التضحية بالنفس «الضريبة الدموية» والتضحية بالنفيس «الضريبة النقدية» بحيث يساهم كل أفراد الأمة في واجب التطهير من أجل تغيير المجتمع الاسلامي من متخلف إلى متحضر ومن مجتمع مستعبَد إلى مجتمع متحرر، وقد حددنا في الكتاب السابق ضريبة التطهير بنسبة معينة من العمر الزمني أو الدخل الشهري، ويمكن أن توضح في عدة أنماط حسب الحاجة وحسب تطور الفكر.

وعلى الداعية أن يعمل على تحقق روح التضحية بحيث تتخطى الحدود المكانية والدولية وذلك بما ينفثه الداعية من شعلة الايمان بالتوحيد والتحرر وبعبارة أوضح يجب أن يكون دور الداعية هو العمل على بعث روح الفداء في كل فرد، بحيث تكون الحركة دائرية بين مرحلة الاستواء وحبر العلماء ودماء الشهداء.

فلكي تنهض الأمة الاسلامية، ولتقوم بدورها الحضاري من جديد لا بد من

إعداد أفكار لتصبح ظواهر متجسدة متميزة، ويشترط الوصول إلى البناء الحضاري التطابق بين العقل والعقيدة وهذا التطابق يشترط الايمان الحقيقي للداعية الذي هو شرط التحرر الذاتي والذي سيكون موضوع الحلقة الثانية بإذن الله.

د. محمد يسين عربي

ملاحظة:

المرجع الاساس لهذه الدراسة هو كتابنا «تأملات في بناء المجتمع الاسلامي».